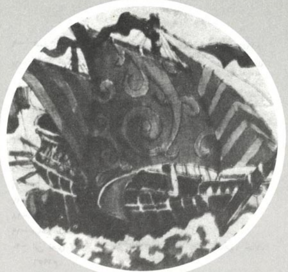

أدب البحر
في الف ليله وليله

بقلم / أحمد محمد عطية

مهدت قصص التجار العرب البحرية لظهور قضص السندباد أعظم أعمال أدب البحر اكتمالا وتأثيرا في التراث الشعبي العربي وفي الأدب العالمي كله. فظهرت «رحلات السندباد» أولا ككتاب مستقل، ثم ضمنتها ألف ليلة وليلة مع مجموعة من القصص البحرية العربية الأصل، وشكلت أكثر أعمال أدب البحر العربي عبقرية، فنيا وعلميا. كما أفادت هذه القصص البحرية بدورها في تطور أدب البحر عند العرب فيما بعد على أيدي ابن ماجد وملاحي الخليج في أدب المرشدات البحرية، «الرهنامج» أو «الرهماني»، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

ومعروف أن ألف ليلة وليلة من أهم أعمال الأدب الشعبي العربي، بالرغم من أصلها الهندي وترجمتها الفارسية، الا أنها بصياغتها العربية واضافاتها العربية الكثيرة وأسمائها العربية للمدن والملوك ووقائعها العربية وروحها العربية، تعد عملا من أعمال العبقرية العربية في الأدب الشعبي.

وقد نقل العرب قصص ألف ليلة وليلة مرة عن كتب الفرس التي ترجم اليها الأصل الهندي الأول، ثم تعددت الصياغات والاضافات العربية مع تداول القصص حتى صارت الى صورتها المعروفة لدينا. ومن هنا اجتمع لألف ليلة ثلاثة مصادر: الأصل الهندي والترجمة الفارسية والاضافات العربية التي تشكل حجما كبيرا لأنها نقلت نقلا من كتب الأدب العربي وأخبار الرحالة والتجار العرب. والى هذه المصادر العربية ترجع قصص ألف ليلة وليلة البحرية.

وتقول الدكتورة سهير القلماوي في رسالتها عن «ألف ليلة وليلة» أنها «مجموعة من القصص المتفرقة كان القصد من كتابتها تسلية العامة شفاها، وتسميعا». وأنها عاشت «قرونا متتالية يتحكم فيها ذوق السامعين فلايجد هذا التحكم من القاص أقل تحرج من التلاعب بالأصل بأقصى مايمكن أن يكون

التلاعب. ولقد ساعدت على هذا طبيعة الأثر نفسه»، وأنها تضم «مجموعات مترجمة من القصص الهندية والفارسية ومجموعات مما روي في اللغة العربية على أنه أخبار، أو قصص قديمة ذكر في بعض مصادر التاريخ انها كانت كتبا مستقلة كقصة السندباد وشماس أو السبع وزراء، بل ان هذه القصص مالايزال نابيا في المجموعة تظهر اضافته واضحة قوية». وأنها «مجموعة من القصص تختلف عصورها وأصولها ومواطنيها، لاشيء يحكم ربط أجزائها على هذا النحو ولاشيء يحد من مادتها، وكذلك لانعرف اسم مؤلف واحد ولااسم قاص واحد ممن ألفوا قصصها، أو قصوها بأسلوبهم»(١).

ويتفق معظم الباحثين في ألف ليلة وليلة على أن قصة السندباد عربية الأصل وأنها وجدت في نسخ مستقلة وفي كتاب يحمل اسم السندباد، وأنها أضيفت الى النص الأول لألف ليلة وليلة. بل ويرى البعض (مثل رودي باريت) أن القصص الأخرى الواردة في النص الأول لألف ليلة وليلة ترجع الى أساطير عربية انتشرت في الهند وفارس قبل ظهور الاسلام. ولعل هذا هو ما يفسر التشابه في الفكر والجوهر في معظم القصص وترديد الكثير من الأسماء العربية والأحداث العربية بها.

صدرت أول ترجمة فرنسية من ألف ليلة وليلة لأنطون جالان في أوائل القرن الثامن عشر، ونشرت في أجزاء في السنوات من ١٧٠٤–١٧١٣. وعن هذه الترجمة الفرنسية صدرت الترجمات الأخرى باللغات الأوروبية في القرن الثامن عشر أيضا بالانجليزية والايطالية والهولندية والدانمركية والروسية والألمانية وغيرها. ثم صدرت ترجمات أخرى في القرن التاسع عشر اعتمادا على النص العربي الصادر عن مطبعة بولاق، مثل ترجمة الدكتور ج.ك. مردوس الصادرة في ١٦ جزء في السنوات ١٨٩٩–١٩٠٦. أما في العربية فان أكمل طبعاتها هي طبعة بولاق الصادرة في سنة ١٨٣٥م. أما الطبعات الأخرى فهي غير كاملة تمتلىء بالاضافة والحذف. وترجع أقدم النسخ الى القرن الرابع الهجري والقرن العاشر.

وقد نالت ألف ليلة وليلة من اهتمام الغرب، علماء وكتاب وفنانين وقراء،

أكثر مما حدث في الشرق العربي، وجذبت اهتمام المستشرقين والرحالة والأدباء والدارسين والتجار في الغرب، نحو الشرق. وأثرت فنون الأدب الغربي والرسم والموسيقى والمسرح، من قصص الأطفال لدى هانز اندرسون الى روبنسون كروزو ، ورحلات جلفر، وروايات «الرسائل الفارسية» لمونتسكيو و «الحلي غير المتحفظة» لديدرو و «كانديد» لفولتير، ورحلات جول فيرن وكتب هـ.جـ. ويلز، وهرمان ملفل مبدع الرواية البحرية العظيمة «موبي ديك» فـ«منذ شبابه تعرف ملفل على ألف ليلة وليلة. وفي شظايا التي كتبها وهو بعد مراهق يقتبس ملفل على نحو موسع في قراءاته هذه ويشير اليها على نحو واضح»(٢).

وقد ظهر التأثير جليا في بعض عناوين المؤلفات الأدبية مثل «ألف سهرة وسهرة» و«ألف ساعة وساعة»، كما تجلى بصورة أوضح في مضامين الأعمال الأدبية الفرنسية وفي الجو العام السائد في تلك الأعمال. وكان تأثير القصص البحرية هو التأثير الغالب في الأدب الغربي «فانتشرت الكليشيهات المعروفة مثل العواصف البحرية والغرق والجزر الخالية ومصارعة الكائنات الخيالية والتغلب عليها (لأن البطل يجب أن ينتصر دائما) والتنكر بزي الجنس الآخر.. وظهرت كذلك في الرواية الفرنسية الجنيات والحوريات والسحرة والحيوانات المسحورة وجبال المغناطيس..» كما كتبت كثير من الأعمال الأدبية العالمية بتأثير حكايات السندباد البحري، وأشهرها رواية «كانديد» لفولتير-«فان سفر كانديد الى الدوراد ويشبه كثيرا مغامرات السندباد البحري، كما وان بطل فولتير قدري كالسندباد»(٣). وحكايات الكاتب الألماني فيلهلم هاوف الذي تأثر بحكايات السندباد ونسج حكاياته على منوالها وذكر في حكايته عن «السفينة الشبحية» عبارة عن كنوز السندباد البحري. «ووجود هذه العبارة في حكاية هاوف يدل دلالة واضحة على أنه عرف حكاية السندباد معرفة تامة، وتأثر بها وهو يكتب حكايته، بل هو يشير بذلك الى مصدرها. فالواقع ان ما وقع لبطله عندما غرقت سفينته يشبه ما وقع لعبدالله بن فاضل من ناحية، وما وقع للسندباد البحري في سفرته السادسة من ناحية أخرى. فبطل حكاية السفينة الشبحية من البصرة مثل عبد الله فاضل. وقائد السفينة يعلن أنه لا يعرف طريق البحر حتى يستطيع أن يتجنب العاصفة التي ستهب بعد حين، ومن ثم يأمر

بطي القلوع، فتستمر السفينة في سيرها، ثم تهب العاصفة فيهتف: لقد ضاعت سفينتي، فهاهو الموت قد نشر شراعه هناك! وهكذا غرق ركاب السفينة، ولم ينج من ذلك سوى أحمد وخادمه مولاي»(٤).

وتأخر الاهتمام بألف ليلة وليلة علميا في الشرق العربي بالرغم من انتشارها الواسع بين العامة والقراء العاديين، فظلت بمنأى عن الدراسات العلمية واهتمام المثقفين حتى خصصت د. سهير القلماوي، بتشجيع من الدكتور طه حسين. رسالتها للدكتوراه عنها وكان هذا هو أول اعتراف علمي بالأدب الشعبي وبفن الحكايات الشعبية في جامعاتنا العربية. ثم توالت اهتمامات الكتاب والدارسين العرب بألف ليلة وليلة بعد دراسة د. سهير القلماوي الرائدة (سنة ١٩٤١)، من الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» الى الأديب اللبناني فاروق سعد وكتابه «من وحي ألف ليلة وليلة» وكتاب «الفن الأدبي» «نظرة في أدبنا الشعبي» عن ألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن. مرورا بالفصول المختلفة التي كتبها كبار الكتاب مثل أحمد أمين وأحمد حسن الزيات، وانتهاء بكتاب «الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة» (بغداد ١٩٧٨) للباحث أحمد محمد الشحاذ، وفيه يقدم تفسيرا سياسيا لألف ليلة وليلة.

غير أن للدكتور حسين فوزي فضل الريادة في دراسة القصة البحرية العربية في ألف ليلة وليلة في بعض فصول كتابه «حديث السندباد القديم». فلم ينل هذا الموضوع عناية أحد سواء من قبله وحتى اليوم. على قدر علمي. وقد اتجه الدكتور حسين فوزي الى القصة البحرية بدافع من حبه للبحر. واستعار من ألف ليلة وليلة اسمه الأدبي الذي طبع به كل مؤلفاته اللاحقة «سندباد».

وقد اعتمدنا في دراستنا لألف ليلة وليلة على طبعة دار الشعب المصرية التي أعدها أحمد رشدي صالح الناقد والباحث المعروف في فنون الأدب الشعبي، لأنها أكمل الطبعات التي حافظت على القصص والحكايات والنوادر كاملة وبنفس ترتيبها، ولم يقم بأي تدخل بالاضافة أو الحذف، الا من بعض العبارات القليلة التي تخدش الحياء وتمس الآداب العامة ولاتؤثر في شكل الحكايات أو مضمونها.

تبدأ ألف ليلة وليلة بحكاية تمهيدية معروفة عن اكتشاف الملك شهريار لخيانة زوجته له مع أحد عبيده السود، وتصميمه على الثأر من جنس النساء كله، بقضاء ليلة مع احدى بنات الجنس ثم قتلها. غير أن شهرزاد تنجح في وقف تلك المذبحة الثأرية اليومية بقصصها وحكاياتها المتتابعة والمتفرعة الى نوادر كثيرة. وفي دراسة عن «ألف ليلة وليلة وفن الحكاية الشعبية» يقدم أحمد رشدي صالح تفسيرا عقلانيا لموقف شهريار وشهرزاد في هذه الحكاية التمهيدية. فينفي عن شهرزاد صفة السفاح، بل يراه في صورة الزاهد الذي بدأ يرفض حياته وهجرته من مقر حكمه، ثم استرداده لوعيه بعد معرفته بحكاية خيانة الجارية للمارد، وتصميمه على الانتقام. ويقول رشدي صالح «بأن شهريار قد أصبح انسانا يمر بأزمة فكرية نفسية» وأنه كان انسانا قلقا يبحث عن حل أجدى من قتل العذارى. وأن شهرزاد قد أعطته ماكان يبحث عنه. في شكل مئات القصص والمعلومات وأخبار غرائب الكون والطبيعة وأخبار الملوك والصعاليك. وبذلك فتحت شهرزاد آفاق عقله مع الحكايات والنوادر التي أخذت تفرج من أزمته وقلقه. وأن ألف ليلة وليلة مهدت لشخصية شهرزاد بما روته عن قراءاتها العميقة الواسعة في كتب التاريخ والسير والعلوم والآداب. «فشهرزاد – اذن – كما يقول رشدي صالح، عقل ناضج ومعرفة كاملة أو هي أداة تستعرض من خلالها شتى الأخبار والسير ومختلف الأقوال والحكم. وأما شهريار فيتطلع الى معطيات هذا العقل والمعرفة: والحكايات ذاتها خيوط تتسع، وتتلاحم، فتنمو في شهريار – ذلك الانسان المتوتر القلق الذي كان يسفك دم العذارى – شخصية شهريار طالب المعرفة»(٥). وهو تفسير معقول لكل ماحوته ألف ليلة وليلة من معلومات وأخبار وصياغة قصصية فنية تستوعب أسلوب الحكاية الشعبية، القائم على ذكر الحدث الأصلي والتفرع منه الى أحداث فرعية ثم الارتداد الى الحدث الأصلي. فالبناء الفني قائم على الاستطراد وتراكم النوادر الفرعية وهذا التراكم يؤدي بدوره الى تفريغ الأحداث الأصلية للقصة، فالتراكم يعمل على نقيضه أي يؤدي الى الانفراج. ويقول رشدي صالح ان وظيفة النوادر الفرعية انها تساعد على تركيب الحكايات الأصلية وشرحها وايضاحها وتفسير ظواهر الطبيعة والبشر.

أما الدكتورة سهير القلماوي فترى طبيعة الكتاب القائمة على التدوين قد أحدثت أثرين في الشكل الفني لقصص ألف ليلة وليلة. الأول انها ألجأت القصاص الى نقل معلومات جاهزة من الكتب عن عجائب البحار والخلق وأخبار الملوك والأدباء وغيرها من القصص المعروفة في البلاد التي اتصل بها المسلمون. والأثر الثاني أن هذا التدوين ساعد على الارتفاع بمستوى القصص الشعبي المتداول، والمعروف لدى شعوب المنطقة، باثراء تلك القصص بالخيال والأخبار والمعلومات والحرص على جودتها فنيا، وذلك جنبا الى جنب مع القصص العربية الأخرى المنقولة بسذاجتها من البيئات العربية. لذلك جاءت بعض القصص العربية منقولة بحالتها من كتب الأدب دون تصرف أو صياغة فنية مثل أخبار المعلمين والصالحين. بينما لعب الفن دوره في بقية القصص الأخرى فأضافت عبقرية الفنان الخلاقة الى الحكايات، عند نقلها من كتب الأدب الى ألف ليلة وليلة. أما طريقة القص الحافلة بالاستطراد والتكرار فهي مألوفة في كتب الأسمار العربية.

ولا شك أن حكايات السندباد ورحلاته السبع هي أعظم القصص فى أدب البحر عند العرب وأكثرها تعبيرا عن عالم البحر، أو كما يقول الدكتور حسين فوزي انها «القصة البحرية الكبرى في الأدب العربي، وهي فوق هذا كله واحدة من أهم قصص البحار في آداب العالم..» وانها «قصة جغرافية تلخص المعارف البحرية عند العرب في القرون الوسطى» لأن «البحر في قصة السندباد هو الغاية التي تنتهي اليها القصة. البحر هو ممثلها الأول (البروتاجونست) أو أنها حوار بين اثنين البحر والسندباد. حوار يتطور من الهدوء الى العنف، ومن تبادل الود الى تداول اللكمات، والمناجزة والصراع»(٦). ويرى المستشرق «اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي» انها تتصل بالقاعدة البحرية العربية السابقة للتجار العرب، وانها عرفت أولا ككتاب عربي مستقل أضيفت الى قصص ألف ليلة وليلة، وانها ليست خرافة. اذاستبان من أبحاث رينودي خويه وفيران أن أسفار السندباد انبعثت في نفس الوسط الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان وفي نفس مواضعها أيضا أي سيراف والبصرة

وبغداد، بل وفي نفس العصر تقريبا أي حوالي عام ٩٠٠.. ويرجع كازانوفا تاريخها بالتحديد الى عصر الرشيد، أما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو، وقد أمكن تحديد بعض حوادثها بالكثير من الدقة». ويعرض كراتشكوفسكي لتأثير السندباد في سير القديسين في أوائل العصور الوسطى وفي أساطير المسيحية الأوروبية، فيقول أن «أسطورة براندان التي ترجع الى أوائل القرن الحادي عشر مدينة بالكثير في بعض مواضعها لهذه القصص»(٧). وهذا كله يؤكد عروبة قصة السندباد ورحلاته وتمثيلها للثقافة العربية ولأدب البحر العربي في زمانها.

بدأت شهرزاد تروي حكاية السندباد للملك شهريار في نهاية الليلة الثامنة والعشرين بعد الخمسمائة. واستمرت الحكاية عبر الليالي التالية حتى الليلة السابعة والخمسين بعد المائة الخامسة. وهذا التقطيع في الحكايات عبر الليالي هو الأداء الفني المميز في ألف ليلة وليلة للتشويق وشد المتلقي الى نهاية الحكاية. وحددت شهرزاد من الحكاية بأنها وقعت في عهد الخليفة هارون الرشيد. واستهلتها بحكاية تمهيدية عن لقاء السندباد «الحمال»، الذي يعمل حمالا على البر، بالسندباد البحري في قصره الفاخر بعد استماع الأخير لحديث الأول عن حكمة الله في توزيع الأرزاق ومقارنته بين فقره وعمله الشاق وبين قصر السندباد البحري الفخم وبساتينه المورقة المثمرة وآيات الثراء والوفرة لديه. وفي هذه الحكاية نطالع الجو العربي والأخلاق الاسلامية والطقوس الاسلامية أيضا كالتسليم بالقضاء والقدر وتقسيم الأرزاق وتكرار ذكر اسم الله تعالى، وغير ذلك من العادات العربية والجو العربي.

وتمهد هذه الحكاية لحكايات أسفار السندباد البحري، الذي يقرب السندباد الحمال من مجلسه ويكرمه ويخبره بأنه جمع ماله وأقام قصره بعد عناء وتعب في رحلاته السبع الشاقة، ويسردها على مسامعه. وهكذا تتفرع الحكاية الأصلية الى سبع حكايات فرعية، تحمل كل منها حكاية رحلة من رحلات السندباد البحري، موزعة على عدة ليالٍ، ثم تختتم كل حكاية من الحكايات السبع بالعودة الى الحكاية الأصلية وهو الشكل المتبع في حكايات ألف ليلة

وليلة. وهكذا تجمع الحكاية بين الزمنين الماضي والحاضر، وتمزج بينهما وتستخدم أسلوبا فنيا متقدما أقرب الى الرجوع للخلف (الفلاش باك) المستخدم في القصة الحديثة.

جمعت حكاية الرحلة الأولى للسندباد البحري بين المغزى الفكري، وبين أدب البحر. بين دعوة السندباد البحري الى الكفاح والكد والمغامرة في الحياة، وبين التمرس بأسفار البحر وتجارته وأنوائه ومغامراته. ويذكر السندباد البحري بعض أبيات الشعر العربي دون ذكر لقائلها تأكيدا لقوله للسندباد الحمال بأن الأرزاق توزع حسب الاجتهاد والكد، ونكتفي منها بهذين البيتين:

بقدر الكد تكتسب المعالي   ومن طلب العلا سهر الليالي
يغوص البحر من طلب اللآلي   ويحظى بالسيادة والنوال

وهكذا يبدو البحر مجالا للكفاح والعمل الشاق من أجل حياة أفضل. هذا جانب الفكر في الحكاية الأولى. أما جانب البحر، فانها امتداد لقصص تجار البحر العرب، تجمع بين المعارف البحرية الشائعة في زمانها وابداع الخيال والخلق الفني. فالسندباد البحري في هذه الحكاية، ضاقت به الحياة على الأرض بعد سعة. فباع ماتبقى لديه من ميراثه واشترى بثمنه بضاعة للتجار عبر البحار، عملا بقول الشاعر بأن الغوص في البحر هو طريق الفوز باللآليء وتحقيق الآمال الكبار. ومن ثم اتجه من بغداد الى ميناء البصرة منطلق التجار العرب الى البحر ملتقاهم. ويركب السندباد سفينة تحمل أمثاله من التجار العرب مع بضائعهم، ويركب البحر ويهبط الجزر والشواطيء، يبيع ويشتري ويقايض ويتبادل البضائع، ويتنقل من بحر الى بحر ومن جزيرة الى جزيرة حتى يصل الى جزيرة جميلة كأنها الجنة، فينزل بها مع بقية التجار، ويضع رحاله ويشعل لهم المواقد. غير أن ربان السفينة يصرخ فيهم محذرا بأنهم يقفون على سمكة ضخمة (ربما عنى بها الحوت)، وأنهم أيقظوها بنيرانهم، وأن عليهم ترك كل شيء وأن يهرعوا فورا الى السفينة قبل اقلاعها. فيلحق بالسفينة من يلحق

ويغرق الباقون عندما تأخذ السمكة الهائلة في التحرك والغوص في الماء بماعليها.

ويفلت السندباد البحري من السفينة ومن الغرق. ويتعلق بقطعة خشبية ويكافح الأمواج والرياح، حتى يهبط بجزيرة ظل يأكل من فاكهتها ويخلد للنوم الى أن يكتشفه أهل الجزيرة ويقودونه الى ملكهم، الذي يقربه من مجلسه، بعد أن سمع بقصة كفاحه البحرية. وفي هذه الجزيرة يسمع السندباد البحري بقصة حصان البحر الذهبي الذي يظهر مرة كل شهر على ساحل الجزيرة ويحاول جذب خيولها البرية الى قاع البحر ولكنه يفشل في ذلك نظرا لأنها مقيدة، فيعاشر احداها مرة كل شهر لتحمل «وتلد مهرا أو مهرة تساوي خزانة مال». والبحر في هذه الحكاية هو عالم بالغ الثراء والاتساع والغموض، يمنح ثروته لمن يكد ويناضل في سبيل الفوز بها. أما السندباد البحري فيلتقي في نهاية الحكاية بسفينته الأولى ويجد عليها بضائعه كاملة، فيهدي بعضها الى ملك الجزيرة ويتلقى منه الهدايا الثمينة ويبيع بقية بضائعه ويعود الى ميناء البصرة ومنها الى مدينة بغداد فيشتري الدور والبساتين ويعيش حياته الحافلة بالثراء والبهجة والمآكل والمشارب.

كانت الرحلة الأولى للسندباد عبر البحار رحلة استكشاف للبحر وبحث عن الثراء والسعة في الرزق والعيش، تمرس خلالها السندباد البحري بمشاق البحر وتعرف الى عالمه وتقلباته وجنى ثماره وعاد بمكاسبه وثرائه. أما الرحلة الثانية فجاءت بينما السندباد البحري في رغد من العيش وثراء وفير. ومن هنا كان الدافع الى الرحلة هو متعة الرحلة البحرية ذاتها، مع التمتع بمزايا التجارة البحرية والكسب الوفير منها. لذا فانه يصف الرحلة في بدايتها وصفا ممتعا يشي بحبه للبحر والسفن. فيقول بعد أن يصف شوقه للرحلة: «فهممت في ذلك الأمر، وقد أخرجت من مالي شيئا كثيرا، واشتريت به بضائع وأسبابا تصلح للسفرة، وحزمتها وجئت الى الساحل، فوجدت سفينة مليحة جديدة، وهي كثيرة الرجال زائدة العدة، ونزلت حمولتي فيها أنا وجماعة من التجار، وقد سافرنا في ذلك النهار وطاب لنا السفر»(٨).

وتتميز قصة هذه الرحلة الثانية بسعة الخيال وبالاهتمام بعجائب البحر والمخلوقات. ففيها يتحدث السندباد البحري عن طائر الرخ الضخم الذي يحجب قرص الشمس ونورها بضخامته ويزن أولاده بالأفيال، ويبلغ محيط بيضته «خمسين خطوة وافية». ويتحدث أيضا عن وادي الحيات وعن أحجار الماس وعن حيوان الكركدن وعن أشجار الكافور.

كانت الرحلة البحرية الثانية في بدايتها رحلة جميلة ناجحة من بحر لبحر ومن جزيرة لجزيرة حتى رست السفينة على جزيرة مورقة كثيرة الأشجار والثمار، فأكل منها السندباد ونام حتى أخذته سِنَة من النوم فأقلعت السفينة تاركة إياه وحيدا في الجزيرة. وظل ينعى سوء حظه ومصيره التعس الذي دفعه الى هذه الرحلة البحرية بينما هو في رغد من العيش والثراء. ثم تعلق بطائر الرخ بأن ربط عمامته برجل طائر الرخ الذي حمله الى قمة جبل ونزل به الى وادي الحيات الضخمة، حتى تمكن بعض التجار العرب، الباحثين عن الماس، من انقاذه والعودة به الى ميناء البصرة ثم بغداد حيث قصره وجواريه وحياته السعيدة المترفة. ومعروف أن الكاتب البريطاني الكبير هـ.جـ. ويلز تأثر بقصة طائر الرخ ونقلها في أحد أعماله الأدبية (جزيرة ايبيربا).

وفي حكاية الرحلة البحرية الثالثة تتكرر نفس القصة باضافات جديدة. فتغدو حكايات السندباد البحري أشبه بتنويعات على لحن واحد. فتتكرر بعض الفقرات من هذه القصص في كل قصة بألفاظها وعباراتها، ويتكرر ضياع السندباد في كل رحلة ومصارعته للأمواج والأنواء والأهوال في البحر والبر. وتبرز القيم النبيلة كالاخلاص والوفاء والأمانة.

فالسندباد ما أن يستقر في قصره بمدينة بغداد، وينعم بالحياة المترفة السعيدة ويغترف من ملذاتها، حتى يتحرك فيه الشوق للابحار، فيجهز لرحلته البحرية التالية، ويغادر بغداد الى ميناء البصرة، مدينة التجار العرب، ويركب السفينة مع أقرانه من التجار العرب. وتتكرر أوصاف الرحلة البحرية والمفاجأة البحرية كذلك، ويمتزج الواقع بالخيال كما هو الحال في قصص السندباد، اذ تجتمع فيها

المعلومات الجديدة والخيال المبدع في تصوير عالم الجن والمردة وعجائب المخلوقات. وتصل السفينة الى «جبل الزغب» ويصف السندباد الزغب أوصافا عجيبة. فهم كثيرون كالجياد حتى ملأوا البحر والسفينة. وهم أقرب الى الأقزام الذين ظهروا في قصص الأقزام الغريبة الحديثة، «صفر العيون سود الوجوه صغار الخلقة، طول كل واحد منهم أربعة أشبار. وقد طلعوا على حبال المرساة وقطعوها بأسنانهم، وقطعوا جميع حبال المركب من كل جانب، فمال المركب من الريح ورسا على جبلهم وصار المركب في برهم. وقد قبضوا على جميع التجار والركاب وطلعوا الى الجزيرة، وأخذوا المركب بجميع ما كان فيه. وراحوا الى حال سبيلهم، وقد تركونا في الجزيرة، وخفي عنا المركب ولا نعلم أين راحوا به» (٩)

وفي الجزيرة تنشق الأرض عن مارد ضخم ينتقي كل ليلة أحدهم ويشويه على النار ويلتهمه. ويخوض السندباد معارك الحياة والموت مع المارد ومع الثعابين الضخمة، فهو بطل القصة الذي لا يموت والذي ينتصر في النهاية ويفوز بالمكاسب واللذات. وفي هذه القصة أيضا تتكرر عودة السفينة الأصلية وعليها بضائع السندباد كاملة لم تمس تحمل اسمه. ويطلب منه ربان السفينة أو «رئيس المركب» أن يتاجر فيها باسم صاحبها ويشاركه في الربح. غير أن السندباد البحري يكتشف فيها بضاعته المفقودة ويروي قصته، ويستشهد ببعض التجار فيعترفوا عليه. وهكذا تعود اليه تجارته ويبيع ويربح، ويحمل معه مكاسبه وهداياه عائدا الى داره في بغداد لينعم بالحياة السعيدة.

وفي الرحلة الرابعة تتكرر الحكاية البحرية من الشوق للرحلة و «السفر الى بلاد الناس»، و«مصاحبة الأجناس والبيع والمكاسب»، وركوب السفينة،والانتقال من بحر الى بحر ومن جزيرة الى جزيرة، حتى تهاجم الأعاصير السفينة وتغرقها الأمواج. ويتعلق السندباد البحري مع بعض زملائه التجار في لوح خشبي ليل نهار حتى يصلوا الى جزيرة بها قوم عراة، قدموا لهم طعاما ذهب بعقلهم ومحى ادراكهم وجعلهم يلتهمون الطعام بدون وعي حتى ملأت السمنة أجسامهم، فقدمهم العراة لملكهم بعد شيهم على النار.

أما السندباد البحري فهو الوحيد الناجي من المذبحة لأنه البطل الذكي القادر على اجتياز العقبات والتغلب على الصعاب. ويفر السندباد من مصير زملائه ليقع في مصير أبشع، اذ يدفن مع زوجة له من المجوس تزوجها في جزيرة أخرى ثم ماتت، ولكنه يتغلب على المحنة الجديدة بالحيلة والذكاء، ويفر من قبره عبر كوة في الجبل نافذة الى البحر، حاملا معه زاد الموتى وحليهم وجواهرهم الثمينة التي تدفن معهم طبقا لطقوس الموت عندهم، وهي أقرب الى الطقوس الفرعونية. وهناك تنقذه سفينة مارة، ويعرض السندباد البحري على ربانها مكافأته ماليا فيرفض الأخير بإباء وشمم، ويعلمه أنه ينقذه طبقا لتقاليد البحر العربية، وهي تقاليد المروءة العربية والكرم العربي، كما يوضحها رئيس المركب قائلا: «نحن لا نأخذ من أحد شيئا، واذا رأينا غريقا على جانب البحر أو في الجزيرة نحمله معنا، ونطعمه ونسقيه، وان كان عريانا نكسوه ولما نصل الى بر السلامة نعطيه شيئا من عندنا هدية، ونعمل معه المعروف والجميل لوجه الله تعالى». ويعود السندباد الى داره ببغداد كما يحدث في نهاية كل رحلة من رحلاته.

ويشتري السندباد البحري «سفينة كبيرة عالية مليحة» وعدتها جديدة، في رحلته البحرية الخامسة، ويضع فيها عبيده وغلمانه وتجارته، ويأخذ معه التجار العرب، ويعين عليها رئيسا وبحارة لقيادتها، وتنطلق السفينة من بحر الى بحر، كما يحدث في سائر رحلاته. وتقع أولى مفاجآت الرحلة في انتقام طائر الرخ من ركاب السفينة ويغرقها جزاء لتحطيم احدى بيضاته الضخمة وأكلهم أفراخه.

وينجو السندباد وحده كالعادة، ويلجأ الى جزيرة يلتقي فيها بشيخ البحر ويصفه بصفات خارقة، كما يصف العامة الجن والعفاريت، فرجليه «مثل جلد الجاموس في السواد والخشونة»، ولكن هيئته آدمية، وينجو السندباد من محاولة شيخ البحر قتله بأن يسكره ويقتله. وتنقذه سفينة أخرى، فيلجأ الى جزيرة للقرود حيث يجمع ثمار جوز الهند، ويمر بجزائر القرفة والفلفل ويقايضها بالجوز الهندي ويعود سالما رابحا الى البصرة ومنها الى داره ببغداد.

أما حكاية الرحلة السادسة، فهي قصة بحرية خالصة يستهلها السندباد البحري بنفس المقدمة، عن نسيانه لمشاق الرحلة السابقة، وتوقه الى السفر بالبحر والرؤية والفرجة، والتعرف على الناس والبلاد والتجارة والمبادلة والمقايضة والربح، وركوبه سفينة كبيرة ومليحة تقل التجار العرب عبر البحار، حتى صار رئيس المركب يصرخ وينعيهم لدخولهم في بحر خطر فيه هلاكهم جميعا: «فقال لهم الرئيس:

– اعلموا يا جماعة اننا تهنا بمركبنا، وخرجنا من البحر الذي كنا فيه، ودخلنا بحرا لم نعرف طرقه، واذا لم يقيض الله لنا شيئا يخلصنا من هذا البحر هلكنا بأجمعنا، فادعوا الله تعالى أن ينجينا من هذا الأمر.

ثم ان الرئيس قام على حيلة وصعد على الصاري، وأراد أن يحل القلوع، فقويت الريح على المركب فردته على مؤخرته فانكسرت دفته قرب جبل عال، فنزل الرئيس من الصاري..».

ثم يصف السندباد تفاصيل غرق المركب بمن عليه بعد أن حطمتها الأنواء على حافة جبل. ويغرق غالبية التجار وينجو السندباد البحري مع قلة يلجأون الى جزيرة فيها كنوز البحر الغارقة من «أصناف الجواهر والمعادن واليواقيت الملوكية»، وفيها أيضا «العنبر الخام» الذي يعده السندباد ثروة من ثروات البحر فانه «يسيل مثل الشمع على جانب تلك العين من شدة حرارة الشمس، ويمتد على ساحل البحر فتطلع الهوايش من البحر فتبتلعه وتنزل به البحر فيحمى في بطونها، فتقذفه من أفواهها في البحر فيجمد على وجه الماء. فعند ذلك يتغير لونه وأحواله فتقذفه الى جانب البحر فيأخذه السياح والتجار الذين يعرفونه فيبيعونه»(١٠).

ويجمع التجار تلك الثروات الملقاة على الشاطيء ليحملونها في رحلة العودة. غير أن زادهم يتناقص ويعتريهم الضعف «بوجع البطن من البحر» حتى يهلكوا جميعا عدا السندباد البحري، الذي ينفرد وحده بحمل الجواهر والعنبر الخام

ويصنع فلكا من الأخشاب المتناثرة على الشاطيء ويركب له مجدافين أيضا، ويبحر به فوق مياه النهر في رحلة محفوفة بالمخاطر عبر مغارات نهرية جبلية مظلمة، حتى يصل الى جزيرة أخرى يسكنها الهنود فيكرمون ضيافته، ويحمله ملكهم بالهدايا الى الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد، لدى عودته الى بغداد.

وتشوّق قصة الرحلة الأخيرة متلقيها بأن يصف السندباد «حكاية السفرة السابعة» بأنها «أعجب وأغرب من هذه السفرات»، ويعبر عن شوقه الى ركوب البحر قائلا: «فاشتاقت نفسي الى الفرجة في البلاد والى ركوب البحر وعشرة التجار، وسماع الأخبار، فهممت في ذلك الأمر وقد حزمت أحمالا بحرية من الأمتعة الفاخرة وحملتها من مدينة بغداد الى مدينة البصرة، فرأيت مركبا محضرا للسفر وفيه جماعة من التجار العظام، فنزلت معهم واستأنست بهم»(١١). ويحدد السندباد البحري مدة هذه الرحلة البحرية بسبع وعشرين سنة، ويعلن في نهايتها توبة خالصة عن السفر بالبحر، ويعد هذه السفرة «غاية السفرات وقاطعة الشهوات». ذلك أنه جسّد خلالها أهوال البحر، ووصف أضخم حيواناته من الحيتان، فسبق بقرون كثيرة الروائي الأمريكي هرمان ملفل في روايته البحرية الكبرى «موبي ديك» عن الحيتان، ولاشك أن ملفل قرأ رحلات السندباد وتأثر بها بالاضافة الى خبراته الشخصية كبحار وصياد للحيتان.

وفي هذه الرحلة السابعة يقول السندباد البحري لأول مرة بأنه وصل الى الصين، في رحلة «طابت لنا الريح»، وتحقق فيها الكثير من البيع والربح. غير أن ريحا عاتية هبت على السفينة وأمطرتها بسيول من مياه الأمطار. ويصف السندباد كل ذلك وصفا دقيقا قائلا: «واذا بريح عاصف هبت من مقدم المركب، ونزل علينا مطر شديد حتى ابتللنا وابتلت حمولنا، فغطينا الحمولة باللباد والخيش خوفا على البضاعة من التلف بالمطر، وصرنا ندعو الله تعالى ونتضرع اليه في كشف مانزل بنا مما نحن فيه. فعند ذلك قام رئيس المركب وشد حزامه وتشمر وطلع الصاري ثم انه التفت يمينا وشمالا وبعد ذلك نظر الى أهل المركب ولطم على وجهه ونتف لحيته، فقلنا: يا رئيس ما الخبر؟ فقال لنا: اطلبوا من الله تعالى النجاة مما وقعنا فيه، وابكوا على أنفسكم وودعوا بعضكم،

واعلموا أن الريح قد غلبت علينا ورمتنا في آخر الدنيا»(١٢).

وأنبأهم رئيس المركب بوجود حيتان ضخمة يمكن أن تبتلع المركب بما فيه. ويصور السندباد ظهور ثلاثة من الحيتان الضخمة، وما أحدثته من صوت راعد قاصف عند ظهورها على سطح الماء، وكيف ملأهم الرعب والفزع من خلفه الحوت الهائلة، وكيف تحركت الحيتان وحطمت السفينة، وصور كفاحه للأمواج واعلانه للتوبة عن السفر بالبحر في قطعة من أجمل أعمال أدب البحر العربي وأغناها بالصور الأدبية المعبرة. لهذا اقتطفت منها هذه الفقرة الطويلة: «ثم ان هذه الحيتان الثلاثة صارت تدور حول المركب، وقد أهوى الحوت الثالث ليبلع المركب بكل ما فيها، فاذا بريح عظيمة ثارت فقام المركب ونزل على شعب عظيم فانكسر وتمزقت جميع الألواح وغرقت جميع الحمول والتجار والركاب في البحر. فخلعت أنا جميع ما كان عليّ من الثياب، ولم يبق عليّ غير ثوب واحد، ثم عمت قليلا فلحقت لوحا من ألواح المركب وتعلقت به، ثم اني طلعت عليه وركبته، وقد صارت الأمواج والرياح تلعب بي على وجه الماء وأنا قابض على ذلك اللوح، والموج يرفعني ويحطني وأنا في أشد ما يكون من المشقة والخوف والجوع والعطش، وصرت ألوم نفسي على ما فعلته، وقد تعبت نفسي بعد الراحة وقلت لروحي:

– يا سندباد يا بحري أنت لم تتب، وكل مرة تقاسي فيها الشدائد والتعب، ولم تتب عن سفر البحر، وان تبت تكذب في التوبة، فقاس كل ما تلقاه، فإنك تستحق جميع ما يحصل لك»(١٣).

وتقدر للسندباد البحري النجاة والتوبة عن أسفاره البحرية بعد مغامرة مع الشياطين. وتنتهي قصة رحلاته البحرية نهاية سعيدة بأن يتزوج من ابنة شيخ التجار ويجمع أموالها بأمواله، ويستقر أخيرا في بغداد، ويهب السندباد الحمال بعض أكياس الذهب لقاء حسن استماعه لقصص رحلاته البحرية. وانها حقا لأجمل القصص في أدب البحر العربي القديم، وأهم قصص البحر في ألف ليلة وليلة، كما وكيفا، لما تضمنته من رؤى مختلفة لعالم البحر.

وتحتوي ألف ليلة وليلة على عدد كبير من قصص البحر الأخرى، يكرر بعضها البعض، أو يدور البعض الآخر منها حول البحر أو فوق البحر بينما يظهر البحر فيها ثانويا وهامشيا لأنها تستهدف الوعظ الديني أو الأخلاقي. لذا سنركز اهتمامنا على القصص البحرية التي تدخل في أدب البحر، وتقدم رؤى مميزة لعالم البحر، ونستبعد تلك القصص المكررة أو التي لا يمثل البحر فيها عالما أساسيا، لأنها لا تعني بالتعبير عن عالم البحر قدر عنايتها بالموعظة الدينية أو الأخلاقية، وهي كثيرة، مثل حكاية أبي قير الصباغ وأبي صير المزين» التي تقع في بحر الاسكندرية، وقصة «بلوقيا» الذي دهن جسمه بسائل عشبي وسار فوق مياه البحار السبعة المتفرعة من «حكاية حاسب كريم ابن دانيال الحكيم»، و «حكاية بدر باسم ابن الملك شهرمان وبنت السمندل» وما حوته من تكرار لما ورد عن أبناء البحر ومدائن البحر وكنوز البحر بشكل أوضح في «حكاية عبد الله البري مع عبدالله البحري» التي سيأتي ذكرها في السطور التالية، وقصة حسن الصائغ البحري.. وغيرها من القصص الأخرى التي تقع على مياه البحر أو تدور حوله، ولكن وجود البحر فيها ثانوي وغير مؤثر».

القصة التالية في الأهمية من أدب البحر في ألف ليلة وليلة هي «حكاية عبدالله البري مع عبدالله البحري». وهي من أمتع القصص الخيالية في أدب البحر. وهي تخلق عالم البحر خلقا جديدا، بين الاسطورة والخيال، وتروي القصة الخيالية بوقائع مادية قريبة من منطق عصرها. أما البحر في هذه القصة فهو عالم هائل يضم في أعماقه المدن وعجائب المخلوقات مع الثروات والكنوز والجواهر. وهو عالم بالغ النقاء والصفاء والخلق والايمان الكامل بالله ورسوله محمد ﷺ. فكل من في البحر والأرض يسبح بحمد الله، لذا يحمل الجميع اسم عبدالله، فالكل عبيد الله، وفي البحر يفرحون بالموت لأن الروح أمانة أودعها الله في أجسام كل المخلوقات وهو يستردها متى شاء، وقد كانت هذه نقطة الخلاف والقطيعة بين بطلي القصة عبدالله البحري وعبدالله البري بسبب معرفة الأول بحزن أهل البر لموت أقاربهم.

أما عبد الله البري، فهو صياد سمك فقير كثير الأبناء. جاءته زوجته بالمولود

العاشر، وطلبت اليه أن يصطاد رزقه من البحر. ولكنه ظل يوما كاملا يطرح شبكته فتخرج خالية، وفي عودته خائبا بائسا شعر بأزمته عبد الله الخباز فمنحه خبزا ونقودا وأمهله حتى يأتيه الخير من البحر. وظل على هذا الحال أربعين يوما فلا هو يصطاد شيئا ولا الخباز يكف عن مد يد المساعدة له. وفي اليوم الواحد والأربعين أخرجت شبكته رجلا يدعى عبدالله البحري، عرفه بنفسه بأنه من أبناء البحر، وعقد معه اتفاقا أن يحضر له قبل طلوع شمس كل يوم حملا من الفاكهة ويبادله بحمل مماثل من الجواهر واللآليء. وهكذا ظلت العلاقة مستمرة بينهما، حتى صار الصياد وزيرا وتزوج ابنة الملك، ورد الجميل لصاحبه الخباز. ودعاه صديقه عبد الله البحري للتعرف على عالم البحر، ودهن جسمه بدهان معين يجعله يعيش ويتحرك تحت الماء كالسمك وأبناء البحر.

وفي البحر تأخذ القصة في ابداع عالمها الخيالي، عندما يصحب عبدالله البحري صديقه عبد الله البري للسير في عالم البحر والتعرف على أهله وعجائب المخلوقات به وعاداته وتقاليده. فوجد عبد الله البري مخلوقا ضخما هائلا أسود الجثة اسمه «الدندنان» يقضي على أبناء البحر، ويموت من صوت أبناء البر أو أبناء آدم كما تقول الحكاية، وبالفعل يصرعه عبد الله البري بمجرد أن يسمعه صوته. وشاهد مدنا كثيرة في البحر. مثل مدينة بنات البحر، وسكانها من البنات المنفيات بأمر ملك البحر لغضبه عليهن، واذا خرجت احداهن من المدينة تعرضت للالتهام من دواب البحر. وتصف الحكاية بنات البحر أوصافا أقرب الى الآدمية، فـ«لهن وجوها مثل الأقمار، وشعورا مثل شعور النساء، ولكن لهن أيادٍ وأرجلا في بطونهن، ولهن أذنابا مثل أذناب السمك»(١٤).

كما تعرف عبد الله البري الى المدن الأخرى في عالم البحر، والى الحياة اليومية في هذا العالم الخيالي، وهي أقرب الى المدن الموجودة في عالمنا، ففيها المسلمون والنصارى واليهود، ولكن لا يتزوج منهم سوى «خصوص المسلمين». ونظرا لامتلاء البحر بالجواهر فانها كالأحجار لا تمثل قيمة، ولكن السمك هو السلعة

الوحيدة ذات القيمة التبادلية. فمهر الزوجة، هو طعامهم اليومي الوحيد. والبيوت تقوم بحفرها في قاع البحر أنواع معينة من الأسماك، تتحرك بأمر ملك البحر: تدعى «النقارين»، فان كل من أراد أن يصنع له بيتا يروح الى الملك ويقول له: «مرادي أن أتخذ بيتا في المكان الفلاني» فيرسل الملك معه طائفة من السمك تسمى النقارين ويجعل كراءهم شيئا معلوما من السمك، ولهم مناقير تفتت الحجر الجامد، فيأتون الى الجبل الذي أراده صاحب البيت وينقرون فيه البيت، وصاحب البيت يصطاد لهم السمك، يلقمهم حتى تتم المغارة فيذهبون ويسكنه صاحب البيت، وجميع أهل البحر على هذه الحالة، لا يتعاملون مع بعضهم، ولا يخدمون بعضهم الا بالسمك، وكلهم سمك»(١٥).

فهذا التصور الخيالي لعالم البحر في «حكاية عبد الله البري مع عبد الله البحري»، قائم على أسس واقعية، ومصاغ بتفاصيل واقعية. وهي ترمي الى تصوير عالم البحر، كعالم كامل مواز لعالم البر، وأنه يمتاز عنه بالثراء الوفير والنقاء والايمان. فقد رأى عبدالله البري نحو ثمانين مدينة في قاع البحر، وقال له عبد الله البحري: «وأي شيء رأيت من مدائن البحر وعجائبه، وحق النبي الكريم الرءوف الرحيم، لو فرجتك ألف عام في كل يوم على ألف مدينة وأريتك في كل مدينة ألف أعجوبة، ما أريتك قيراطا من أربعة وعشرين قيراطا مدائن البحر وعجائبه، وانما فرجتك على ديارنا وأرضنا لا غير»(١٦).

أما عبد الله البري فقد سئم أكل «السّمك الطري» غير المطهي على النار، وتاقت نفسه الى الحياة البرية، «فعرفه عبد الله البحري على زوجته وأبنائه كما يجري في حياتنا اليومية، غير أنهم ضحكوا عليه لأنه «أزعر بدون ذنب» وقاده الى ملك البحر الذي ضحك عليه أيضا، ولكنه أكرمه ووهبه ما شاء من الجواهر. ولكنهما اختلفا على تقاليد الوفاة في البر والبحر، كما ذكرت من قبل، فكانت تلك نهاية العلاقة بين عبدالله البري وعبدالله البحري، وختام الحكاية البحرية كلها. وهو ختام سعيد كما يحدث في كل حكايات ألف ليلة وليلة، اذ عاش عبدالله البري في سعادة كوزير للملك بفضل جواهر البحر.

ومن قصص البحر الأخرى في ألف ليلة وليلة، «حكاية ابن خصيب والفارس النحاسي»، وهي قصة تجمع بين المعارف البحرية العربية السائدة في زمانها وبين الخيال والأسطورة. وبطل القصة ملك يدعى «عجيب ابن خصيب»، محب للسفر وركوب البحر؛ فمدينته تطل على البحر، والبحر يمتد أمام قصره باتساع وتتناثر حوله الجزر الكثيرة الكبيرة. وله في البحر ثلاثة أساطيل تجارية وسياحية وحربية «خمسون مركبا للمتجر وخمسون مركبا أصغر للفرجة ومائة وخمسون قطعة معدة للحرب والجهاد». وقد دفعه حب البحر الى القيام برحلة طويلة فأنزل في البحر عشرة مراكب وزودها بزاد كامل. وبعد عشرين يوما من الرحلة البحرية، تقلب البحر وهاج وثارت الرياح من كل جانب، ولم يلبث أن هدأ مع ظهور نور الصباح. فلجأوا الى جزيرة واستراحوا يومين، ثم عاودوا الاقلاع في مياه البحر لمدة عشرين يوم أخرى حتى «اختلفت المياه» عليهم، الى «الناظور» «كشف البحر»، فصعد الى السارية، ونظر مليا ثم قال «رأيت عن يميني سمكا على وجه الماء، ونظرت الى وسط البحر فرأيت سوادا من بعيد يلوح ساعة وساعة أبيض. فلما سمع شيخ الملاحين هذا الكلام نتف لحيته وقال للناس: «أبشروا بهلاكنا ونحن نبكي على أنفسنا». وأوضح شيخ الملاحين شارحا رؤية الناظور بأنهم ضلوا طريقهم في البحر، وأن هذا سيقودهم الى «جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس وتجرنا المياه غصبا الى جهته فتمزق المركب ويروح كل مسمار في المركب الى جبل ويلتصق به لأن الله وضع في حجر المغناطيس سرا وهو أن جميع الحديد يذهب اليه» وفي هذا الجبل حديد كثير لايعلمه الا الله تعالى، حتى أنه تكسر من قديم الزمان مراكب كثيرة، بسبب ذلك الجبل، ويلي ذلك البحر قبة من النحاس الأصفر معمودة على عشر أعمدة وفوق القبة فارس على فرس من نحاس وفي يد ذلك الفارس رمح من النحاس ومعلق في صدر الفارس لوح من الرصاص منقوش عليه أسماء وطلاسم فيها..» وخلص شيخ الملاحين الى أنه «مادام هذا الفارس راكبا الى هذه الفرس تنكسر المراكب التي تفوت من تحته ويهلك جميع ركابها جميعا ويلتصق جميع الحديد الذي في المركب بالجبل، وما الخلاص الا اذا وقع هذا الفارس من فوق تلك الفرس(١٧).

هذه هي الفكرة المحورية في «حكاية ابن خصيب والفارس النحاسي» وهي تجمع بين الصياغة الواقعية للمعارف البحرية العربية في زمانها وبين الخيال والأسطورة، وتحاول أن تفسر ظاهرة علمية تفسيرا يجمع بين التفكير العلمي والأسطوري. ويقول أحمد رشدي صالح انه توجد في مياه البحر الأحمر بالفعل صخورا بركانية وشعابا مرجانية تشع اشعاعات فوسفورية وتشكل خطرا على الملاحة في البحر الأحمر وأن الخيال الشعبي قد نسج حول هذه العوائق الملاحية عددا من القصص الخرافية منها أنها تتسبب في تفكيك المسامير الرابطة لألواح السفن، بتأثير المغناطيس الموجود في تلك الصخور. ولذلك فان العرب تجنبوا وضع المسامير في سفنهم بالبحر الأحمر واستبدلوها بحبال من الألياف، بينما ظلت المسامير في السفن العربية بالبحر الأبيض المتوسط. ويؤكد الدكتور عبدالمحسن صالح وجود هذه الشعاب المرجانية في أعماق البحار التي تشع الأضواء الزاهية(١٨).

أما بقية حكاية الملك خصيب والفارس النحاسي، فتحكي مغامرة بحرية ناجحة يقوم خلالها الملك خصيب بالقضاء على الفارس النحاسي، بعد غرق سفنه بمن عليها ونجاته وحده في التغلب على الأمواج والوصول الى قمة الجبل، اثر سماعه لهاتف أسطوري دله على طريقة اغتيال الفارس النحاسي بقوس من نحاس أيضا «وثلاث نشابات من رصاص منقوش عليها طلاسم». وعندما يقع الفارس النحاسي ترتفع مياه البحر حتى تصل الى قمة الجبل، ويطفو قارب يقوده ملاح نحاسي يسافر به لمدة عشرة أيام الى بر السلامة، ولكنه ينطق اسم الله فينهار الملاح الشيطاني ويغرق الزورق، ويقع ابن خصيب في مغامرة اسطورية أخرى بعد أن يقتل ابنا لتاجر جواهر طبقا لنبوءة المنجمين، وينتظر حتى يجف ماء البحر فيعبره على قدميه عبورا صعبا في كثبان الرمال الناعمة الكثيفة ليخوض مغامرة برية ثالثة، لاعلاقة لها بالبحر وأدب البحر.

هذه هي أهم حكايات أدب البحر في ألف ليلة وليلة، أما ما عداها فهي مكررة، أو أنها تدور حول البحر، أو يرد ذكر البحر فيها كثيرا، دون أن يؤثر في الأشخاص أو الأحداث أو المحتوى الفكري للحكاية.

الهـوامش

(١) الدكتورة سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، ص ٢٤ - ٢٦.

(٢) جون د. اديكسون، انعكاس البلاد العربية، ثقافتها وفكرها، في الأدب الأمريكي، مجلة المعرفة، عدد خاص عن تأثير الأدب العربي في الآداب الأجنبية، رقم ١٩١ - ١٩٢، كانون الثاني - شباط ١٩٧٨، (ص ١٣١ - ١٤٩).

(٣) الدكتور جمال شحيد، ألف ليلة وليلة في الأدب الفرنسي، المرجع السابق ص ٢٥٣ - ٢٥٩.

(٤) الدكتور أبو العيد دودو، فيلهلم هاوف وألف ليلة وليلة، المرجع السابق.

(٥) أحمد رشدي صالح، ألف ليلة وليلة وفن الحكاية الشعبية. مقدمة ألف ليلة وليلة، طبعة دار الشعب بالقاهرة، ص٧.

(٦) الدكتور حسين فوزي، حديث السندباد القديم، ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٧) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جـ١، ص ١٤١ - ١٤٣.

(٨) ألف ليلة وليلة، ص ٨٢٥.

(٩) المصدر السابق، ص ٨٣٠.

(١٠) المصدر السابق، ص ٨٤٩.

(١١) المصدر السابق، ص ٨٥٤.

(١٢) المصدر السابق، ص ٨٥٤.

(١٣) المصدر السابق، ص ٨٥٥.

(١٤) المصدر السابق، ص ١٤٢٠.

(١٥) المصدر السابق، ص ١٤٢١.

(١٦) المصدر السابق، ص ١٤٢٠.

(١٧) المصدر السابق، ص ٧٠.

(١٨) الدكتور عبد المحسن صالح، أسرار المخلوقات المضيئة، ص ١٠١ - ١٠٢.